العزيزة المفقودة

يرثي تماضر زوجة الملك زهير بن جذيمة العبسي، وهي أم قيس بن زهير:

[الكامل]

جَـازَتْ مُـلِـمّـاتُ الـزّمَـانِ حُـدودَهـا
وَاسْـتَـفْـرَغَـتْ أيّـامُـهـا مَـجْـهـودَهـا[١]
وَقَـضَـتْ عـلَـيـنـا بـالـمَـنـونِ فَـعَـوَّضَـتْ
بـالـكَـرْهِ مـن بِـيـضِ الـلّـيـالـي سُـودَهـا[٢]
بـالـلّـهِ! مـا بـالُ الأحـبّـةِ أعْـرَضَـتْ
عَـنّـا وَرَامَـتْ بـالـفِـرَاقِ صُـدُودَهـا[٣]
رَضِـيَـتْ مُـصَـاحَـبَـةَ الـبِـلـى وَاسـتَـوْطـنـتْ
بَـعـد الـبُـيُـوتِ قُـبُـورَهـا وَلـحـودَهـا[٤]

= الشاعر هذه الكوكبة إنهم سادة تتوفر لهم فضائل الخير وهم آساد في القتال وهم يتلذّذون بدماء الأعداء كأنهم يشربون الشهد.

(١) جازت: تخطّت، ملمات الزمان: مصائبه. ينعى عنترة على الزمان ما يأتي به من الحدثان. وقد حلّ بتلك المرأة الموت بعدما عاشت أيامها التي خُصّصت لها في هذه الحياة.

(٢) المنون: الموت. إنه القدر لا مفرّ منه: وذلك مقدّر لسائر الموجودات على هذه الأرض؛ فالموت مآل البشر جميعاً، والعمر كنز ينفد عندما تستفرغ الحياة أيامها على وجه هذه الأرض، فلا يعوّض من رفد جديد.

(٣)، (٤) يستعيذ عنترة باللّه عز وجل سائلاً ما الذي جعل الأحبّة يمتنعون عنا؟ هل ضجروا من أعباء الحياة ومنا؟ وهل هؤلاء رغبوا عنا بالفراق؟ فاستحبوا مصاحبة العدم ووجدوا في القبور راحتهم فألفوها مختارين أم مجبرين؟

حَـرِصَـتْ عَـلـى طـولِ الـبـقـاءِ وَإنّـمـا
مُـبْـدي الـنّـفـوسِ أبـادَهـا لـيُـعـيـدَهـا[١]
عَـبَـثَـتْ بـهـا الأيّـامُ حـتـى أوْثَـقَـتْ
أيْـدي الـبِـلـى تَـحْـتَ الـتّـرَابِ قُـيـودَهـا[٢]
فَـكَـأنّـمـا تـلْـكَ الـجُـسُـومُ صَـوَارِمٌ
نَـحَـتَ الـحِـمـامُ مـن الـلُّـحـودِ غُـمـودهـا[٣]
نَـسَـجَـتْ يَـدُ الأيّـامِ مـن أكـفـانـهـا
حُـلَـلاً وَألْـقَـتْ بَـيْـنَـهُـنّ عـقـودهـا[٤]
وكـسـا الـرّبـيـعُ رُبُـوعَـهـا أنْـوَارَهُ،
لـمـا سَـقَـتْـهـا الـغـادِيـاتُ عُـهُـودَهـا[٥]

---

(١)، (٢) من طبع البشر حبّ الدنيا وما فيها من متع، فهم دائمو الحرص على البقاء برغم ما فيها من شقاء وبؤس وعذاب؛ والحياة والموت ليسا بأيدينا بل بيد مُبدي النفوس، فهو يُميت البشر ليعيدهم وليُحاسبهم. فكرة البعث والخلود فكرة إسلامية لم تخطر على بال جاهلي مما يؤكد أن القصيدة من عمل شاعر مسلم، من عجيب الأيام أنها تلهو بالبشر، وأن الموت يقيّدهم في فسحة من الأرض ضيّقة جدّاً.

(٣)، (٤) غمد السيف: مقبضه. يشبّه الشاعر أجساد البشر بالسيوف العارية وللأسف سيوف لا تقطع بل يأتي الموت ليضم تلك الأجداث في لحودها، واللحد غمد لا فكاك منه. والأيام بدورها نساج ماهر يخيط أكفان هؤلاء محلّاة تطوّق أعناق البشر بعِقد لا فكاك منه.

(٥) الأنوار، واحدها نَوْر: الزهر الأبيض. الغاديات، مفردها غادية: الغيمة. العهود، المفرد عهد: أول المطر الوسميّ. يتمنّى الشاعر للمتوفاة المطر الوسمي ليتكلّل قبرها بالنور الربيعيّ بحيث تمطر السُّحُب ذلك المكان فترويه، وتنعش فيه الحياة المستقاة من الحياة.

وَسَرَى بِهَا نَشْرُ النَّسِيمِ فَعَطَّرَتْ
نَفَحَاتُ أَرْوَاحِ الشَّمَالِ صَعِيدَهَا[١]
هَلْ عِيشَةٌ طَابَتْ لَنَا إِلَّا، وَقَدْ
أَبْلَى الزَّمَانُ قَدِيمَهَا وَجَدِيدَهَا[٢]؟
أَوْ مُقْلَةٌ ذَاقَتْ كَرَاهَا لَيْلَةً،
إِلا، وَأَعْقَبَتِ الخُطُوبُ هُجُودَهَا[٣]؟
أَوْ بِنْيَةٌ لِلْمَجْدِ شِيدَ أَسَاسُهَا
إِلا، وَقَدْ هَدَمَ القَضَاءُ وَطِيدَهَا[٤]؟
شَقَّتْ عَلَى العَلْيَا وَفَاةُ كَرِيمَةٍ،
شَقَّتْ عَلَيْهَا المَكْرُمَاتُ بُرُودَهَا[٥]

---

(١) النشر: الريح الطيبة. الصعيد: وجه الأرض. ويتمنّى الشاعر لهذا القبر نسيماً ندياً طيب النشر بحيث ينتشر العطر فيعمّ وجه الأرض بعبيره.

(٢) يسأل الشاعر مستغرباً عن مصير الحياة السعيدة وعدم استمرارها فالقدر يبلي تلك الحياة، فيُلحق قديمها بجديدها، فإذا بالدهر سرعان ما ينقضي، وكأننا لم ننعم في هذا الوجود.

(٣) وكذلك لو أن المرء أغمض عينيه طلباً للراحة والنوم، فإذا بتلك الليلة تمرّ سِراعاً، ويُفتّح الإنسان عينيه على فاجعة ومصائب تعقب تلك الغفلة لتعلن حقيقة لا مفرّ منها.

(٤) وكذلك لو أن المرء بنى الصروح الشامخات طلباً للمجد والصيت الحسن على أساس متين، ومهما طال بها الزمان فسوف يُودي بها القضاء إلى اليوم المحتوم لا محالة.

(٥) البرود، واحدها بُرْد: الأثواب المخطّطة. لقد آلم موت تلك المرأة آلها الكرماء الأشراف فبكَوْا ولفّهم الحزن بردائه، حتى المكرمات، لكرم محتدها، مزّقت أثوابها حزناً وأسفاً.

وَعَـــزِيـــزَةٍ مَـــفْـــقُـــودَةٍ قَـــدْ هَـــوّنَـــتْ
مُـهَـجُ الـنّـوَافِـلِ بَـعـدهـا مَـفْـقـودَهـا[١]
مـــاتَـــتْ وَوُسّـــدَتِ الـــفـــلاةَ قَـــتـــيـــلَـــةً،
يـا لـهْـفَ نـفـسـي إذ رَأتْ تَـوْسـيـدَهـا[٢]
يـا قـيـسُ! إنّ صُـــدُورَنـــا وَقَـــدَتْ بـــهـــا
نـارٌ بـأضْـلُـعِـنـا تَـشُـبُّ وَقُـودَهـا[٣]
فـانـهَـضْ لأخْـذِ الـثّـأرِ غَـيـرَ مُـقَـصِّـرٍ
حـتـى تُـبـيـدَ مِـنَ الـعِـداةِ عَـديـدَهـا[٤]

(١) المهج، واحدها مهجة: الروح. النوافل، مفردها نافلة: العطية. إنّ الفقيدة قد جعلت العطايا التي كانت توزّعها على المحتاجين تبكي لأن مهجها لن تجد بعد فقد تلك المرأة من تبكي لأجله.

(٢) توسيدها: وضع رأسها على الوسادة للنوم. لقد ماتت ودفنت في الصحراء، حيث لا أنيس ولا جليس وتوسّدت التراب، وهذا ما يؤلم الشاعر.

(٣) وقدت: اشتعلت. الوقود: الحطب. يخاطب الشاعر قيساً ابن المتوفاة، فقد أشعلت النار في القلوب حسرة وألماً، فهي تشبّ في تلك القلوب فتأكل ما فيها من حبّ للحياة بعد مقتل تلك المرأة.

(٤) يطلب الشاعر من قيس أن يعمل على الثأر لأمه وألّا يُقصّر في سبيل هذا المطلب حتى يقضي على أهل العدوان ولا يبقي منهم أحداً.